# ابن خلدون والعلوم الشرعية

أ. شويرف عبد العالي
قسم الحقوق
جامعة الأغواط

**مقدمة :**

في العصر الحاضر أصبحت دراسة الشخصيات المرموقة في مجال الفكر والعلم أكثر من ضرورة، لاستكشاف العوامل الرئيسية في نشأة العقول البشرية العظيمة ذات الإبداع في ميادين المعرفة العلمية، وعليه فهناك حاجة ماسة إلى التعرف على آفاق معرفة ابن خلدون الواسعة، وكذلك فكره العقلي والنقلي الذي هيأه ليكون من دون شك الرائد الحقيقي في ميدان علوم الإنسان والمجتمع في كامل التاريخ البشري، إنه هو الذي ابتكر وأنشأ في القرن الرابع عشر علما جديدا أسماه علم العمران البشري، وقد تجلى ذلك في مقدمته التي تعتبر مرآة ننظر من خلالها إلى شخصيته وعلمه، وللوقوف على إسهاماته الفكرية والعلمية في ميدان العلوم الشرعية تم تقسيم هذا البحث إلى ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : نشأته العلمية.

المبحث الثاني : ابن خلدون والحياة العملية.

المبحث الثالث : العلوم الشرعية من خلال المقدمة .

الخاتمة .

**المبحث الأول : نشأته العلمية**

ولد ابن خلدون في بتونس، أصوله من أعرق الأصول العربية اليمنية بحضرموت وقد هاجر أفرادها إلى الحجاز قبل الإسلام، واشتهر منهم في صدر

الإسلام وائل بن حجر وخالد بن عثمان (المعروف بخلدون)، الذي دخل الأندلس مع الفتح الإسلامي، واستقر ببعض مدنها، ثم انتقلت أسرة ابن خلدون إلى تونس وفيها أقامت فتربى في حجر والديه إلى أن أيفع، وقد كان مربيه الأول وملقنه العلم والده، فقد حفظ القرآن الكريم، فتوج بأعظم تاج وتلك علامة من علامات النبوغ، ثم لجأ إلى حفظ الأشعار كالشعر الجاهلي وشعر المتبني وابي تمام، ثم انتقل إلى قراءة وحفظ الكتب الفقيه والنحوية والأدبية في جامع الزيتونة الذي كان يومئذ مركز إشعاع يلتقي فيه العلماء والأدباء.

وقد ركز ابن خلدون في دراسته على ثلاث مجالات :

1 – العلوم الشرعية من تفسير وحديث وفقه على المذهب المالكي وأصول الفقه .

2 – العلوم الإنسانية من لغة ونحو وصرف وبلاغة وأدب .

3 – المنطق والفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضية[1].

ولم يكن اهتمام ابن خلدون بعلم واحد وفن واحد، بل تعمق في كل علوم عصره النقلية منها والعقلية، هذا ما جعله وأهله إلى أن يشهد له الصديق قبل العدو بعلو منزلته، ورفعة مكانته في ميدان الفكر والعلم، فقد أعطت تلك الدراسة ابن خلدون تكوينا تعليميا في ثقافتي عصره، ويذكر في كتابه التعريف بابن خلدون أشهر شيوخه: وهما إمام المحدثين والنحاة بالمغرب أبو محمد بن عبد المهيمن الحضرمي وقد لازمه وأخذ عنه سماعا وإجازة الأمهات الست في الحديث زيادة على الموطأ والسير لابن اسحاق، وكتاب ابن صلاح في الحديث وكانت بضاعته في الحديث كثيرة[2].

واستظهر القرآن بقراءاته السبع المشهورة على يد أبي عبد الله الأنصاري الذي أخبر عنه أنه كان إماما في القراءات لا يلحق شأوه، كما أخذ العلوم العقلية عن أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي وهو شيخ العلوم العقلية، فيقول ابن خلدون أن

(أصله من تلمسان وبها نشأ وقرأ فيها كتب التعاليم ..وحذق فيها ورجع من المشرق إلى تلمسان بعلوم كثيرة من المعقول والمنقول، ولما قدم على تونس لزمته وأخـذت عنه الأصلين، والمنطق وسائر الفنون الحكمية والتعليمية، وكان رحمه الله يشهد لي بالتبريز في ذلك ...)[3].

ويعترف بن خلدون بأنه كان شغوفا بالعلم والمعرفة منذ صباه (لم أزل منـذ نشأت وناهزت مكبا على تحصيل العلم حريصا على اقتناء الفضائل متنقلا بـين دور العلم وحلقاته..)[4].

ذهب إلى فاس التي أصبحت مركزا للعلماء والمثقفين الذين غادروا الأندلس وتونس، فوجد في هذا المحيط الفكري اللامع والجو العلمي ما عزز فيه آفاق معارفه (وعكفت على النظر والقراءة ولقاء المشيخة من أهل المغرب ومن أهـل الأنـدلس ..وحصلت على الإفادة منهم على البغية)[5].

**المبحث الثاني : ابن خلدون والحياة العملية**

**ـ ابن خلدون والسياسة :**

لم يزل ابن خلدون مكبا على طلب العلم وتحصيل المعرفة إلى ان بلغ الثامنة عشر من عمره، أين حدث حادثان منعاه من متابعة دراسته فغيرا من مجرى حياته، فالحادث الأول : انتشار الطاعون في معظم أرجاء العالم، وقد كان هذا الوباء نكسة وصفه ابن خلدون بأنها (طوت البساط بما فيه) فذهب الأعيان وجميع المشيخة وهلك أبواي على حد قوله.

وأما الحادث الثاني : فهو هجرة معظم العلماء الذين نجو من هذا الطـاعون من تونس إلى المغرب الأقصى مما دفعاه للاتجاه للسياسة وتولي المناصب والوظائف العامة، فاستدعاه أبو محمد بن تافراكين المستبد على الدولة بتونس، ثم إنـه ذكـر لأبي عنان ملك المغرب الأقصى وكان يجمع العلماء في قصره فاستقدمه إليه وقربه

منه، وتوالت عليه الوظائف بعد ذلك، فكثر منافسوه حتى اشتهر اسمه عند أصحاب السلطان[6].

وظل ابن خلدون يتقلب في البلاد ويراقب الأحداث ويترقب سيرها ليرى ما عسى أن تنطوي عليه من قوانين تخضع لها ظواهر الإجتماع للقياس عليها . وهكذا كانت حياة هذه الشخصية الفذة مضطلعة على شؤون السياسة وأسرارها ومكائدها مما أهله إلى أن ينال ثقة السلطان إبن الأحمر حاكم غرناطة ليكون له مبعوثا إلى ملك قشتالة المسيحي بإشبيليا ليعقد الصلح بين الدولتين واستطاع أن ينجح في مهمته مما جعل ملكها ينال إعجابه فيعرض عليه البقاء هناك، إلا أنه يرفض عرضه فيرجع إلى غرناطة في ضيافة ابن الأحمر[7].

وهكذا استمر في تولي الوظائف إلى أن انتقل إلى المشرق وحصر نشاطه في التدريس والقضاء.

**ـ ابن خلدون والقضاء :**

تولى ابن خلدون منصب القضاء مع علمه بخطورته فيقول :"اختصني السلطان بهذه الولاية، تأهيلا لمكاني وتنويها بذكري، وشافهته بالتفادي من ذلك فأبى إلا إمضاءه ... وبعث من كبار الخاصة من أقعدني بمجلس الحكم بالمدرسة الصالحية (فوض إليه قضاء المالكية) فقمت بما دفع إلي من ذلك المقام المحمود ووفيت جهدي بما أمنني عليه من أحكام الله، لا تأخذني في الحق لومة، ولا يزعني عنه جاه... مسويا في ذلك بين الخصمين آخذا بحق الضعيف معرضا عن الشفاعات والوسائل من الجانبين، جانحا إلى التثبت في سماع البينات، والنظر في عدالة المنتصبين لتحمل الشهادات، فقد كان البر منهم مختلطا بالفاجص والطيب ملتبسا بالخبيث...". فابن خلدون يصف لنا الوضع الذي كان سائدا في مصر حيث أن الحكام هناك ألفوا هذا الجو المتعفن، وأن غالبية الأئمة مختلطين بالأمراء فيلبسون عليهم بالعدالة فيظنون بهم الخير ويقسمون لهم الحظ عن الجاه لتزكيتهم عند القضاة والتوسل لهم فيقول :"وفشت المفاسد بالتزوير والتدليس بين

الناس منهم ووقفت على بعضها فعاقبت فيه بموجب العقاب ومؤلم النكال، وتأدى إلى العلم بالجرح في طائفة منهم فمنعتهم من تحمل الشهادة، وكان منهم كتاب لدواوين القضاة.... وفشا في ذلك الضررفي الأوقاف، وطرق الغرر في العقود والأملاك فعاملتهم بحزم، لما آسفهم علي ... وصار الخلاف في المذاهب كبير والإنصاف متعذر، ، فلا يكاد هذا المدد ينحصر ولا الشغب ينقطع، فصدعت في ذلك بالحق وكبحت أعنة الهوى والجهل، ورددتهم على أعقابهم، وكان منهم ملتقطون سقطوا من المغرب يشعوذون بمفترق من اصطلاحات العلوم هنا وهناك، لا ينتمون إلى شيخ مشهور، ولا يعرف لهم كتاب في فن، قد اتخذوا الناس هزؤا وعقدوا المجالس مثلبة للأغراض ومأبنة للحرم.... فقطعت الحبل بأيدهم وأمضيت حكم الله فيمن أجاروه فلم يغنوا عنه من الله شيء.... فراحوا يألبون علي الناس والسلطان ... وأنا في ذلك محتسب عند الله ما بليت به من هذا الأمر، ومعرض فيه عن الجاهلين، وماض في سبيل سواء من الصرامة وقوة الشكيمة، وتحري العدالة، وخلاص الحقوق، والتنكب عن خطة الباطل متى دعيت إليها، وصلابة العود عن الجاه والأغراض متى غمزني لامسها، ولم يكن ذلك شأن من رافقته من القضاة، فنكروه علي، ودعوني إلى تبعهم فيما يصطلحون عليه من مرضاة الأكابر، ومراعاة الأعيان، والقضاء للجاهل بالصور الظاهرة، أو دفع الخصوم إذا تعذرت، بناء على أن الحاكم لا يتعين عليه الحكم مع وجود غيره... وليت شعري ما عذرهم في الصور الظاهرة، إذا علموا خلافها والنبي صلى الله عليه وسلم يقول في ذلك (من قضيت له من حق أخيه شيء فإنما أقضي له من النار)" وهكذا يظهر ابن خلدون أنه القاضي العادل الذي لا يلين ولا يخضع للإغراءات والعطاءات بقوله :"فأبيت في ذلك كله إلا إعطاء العهدة حقها والوفاء لها ولمن قلدنيها، فأصبح الجميع علي ألبا، ولمن ينادي لتأفف مني عونا وفي النكير علي أمة، وأجمع الشهود الممنوعين أني قد قضيت فيهم بغير الحق لاعتمادي على علمي في الجرح وهي قضية إجماع... وأغروا بي الخصوم فتنادوا بالتظلم عند السلطان وجمع القضاة وأهل الفتيا في مجلس حفل للنظر في ذلك، فخلصت تلك الحكومة من الباطل خلوص الإبريز، وتبين أمرهم للسلطان وأمضيت فيها

حكم الله إرغاما لهم... فكثر الشغب عليا وأظلم الجو حتى تداركني لطف الله بعدما وافق ذلك مصابي بالأهل والولد بالغرق ... فنظر إلي بعين الرحمة فخلى سبيلي من هذه العهدة التي لم أطق حملها ولا عرفت كما زعموا مصطلحها"[8] .

وهكذا أنهى ابن خلدون وظيفة القضاء بالنزاهة المطلوبة في مثل هذا العمل الحساس والخطير.

**المبحث الثالث : العلوم الشرعية من خلال المقدمة**

تخرج ابن خلدون من الجوامع وعلى يد علماء كبار أتقن على أيديهم حفظ العلوم الشرعية، فكان له باع كبير في هذه العلوم فقد كان فقيها قبل أن يكون مفكرا، وقضى حياته من تونس شرقا إلى الأندلس غربا مرورا بفاس وتلمسان وبجاية إلى القاهرة، فكانت هذه الجوامع روافد ومنابع لتعليمه، وقد خلف لنا آثار علمية مهمة ذكرها لسان الدين ابن الخطيب في ترجمته لابن خلدون في كتاب "الإحاطة في أخبار غرناطة" أن ابن خلدون شرح البردة ولخص كثيرا من كتب ابن رشد ولخص مختصر الإمام فخر الدين الرازي وألف كتابا في الحساب، وشرع في شرح الرجز الصادر عني في أصول الفقه لا عناية فوقه من الكمال[9].

وما ترك علما من العلوم إلا تناوله وعرض أمهات مسائله وأستوفي أغراضه، ولذلك قل ما حاز كتابا من عناية الباحثين كعنايته بالمقدمة، حيث ترجمت إلى عشرات اللغات وكتبت عنها آلاف الفصول... وقد استمد ابن خلدون بعض المواد التي بنى عليها فكره وتحليله من تجربته الشخصية، كما استمد بعضها الآخر من المصادر التاريخية والعلوم الدينية التي نضجت قبله ففهمها جميعا وتأولها بطريقته الخاصة وأسفر هذا المخاض عبقرية أضافت الكثير إلى الرصيد الفكري الإسلامي[10].

وقد خص العلوم الشرعية في مقدمته بالدراسة والتحليل والمناقشة ففي الباب السادس من الكتاب الأول تحدث عن العلوم وأصنافها فبدأ في الفصل الخامس إلى التاسع الحديث عن هذه العلوم، فبدأ بالقرآن وعلومه، فقدم أهم المبادئ

والمسائل المتعلق به تقديم العالم المدقق والمحقق، ثم انتقل في الفصل السادس إلى علوم الحديث فأجاد وأفاد مبرزا أهميته موجزا لأهم مصطلحاته وفنونه، ثم تلاه في الفصل السابع بالحديث عن الفقه وما يتبعه من فرائض فتحدث عن المذاهب الفقيه الأربعة وأثنى عليها إلا أنه عندما وصل إلى المذهب الحنبلي قال "أما أحمد ابن حنبل فتلامذته قليل، لبعد مذهبه عن الاجتهاد، وأصالته في معاضدة الرواية، وللأخبار بعضها ببعض وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها، وهم أكثر الناس حفظا للسنة ورواية الحديث" فهل يعيب مذهب الإمام أحمد معاضدة الرواية؟ أليس السنة المصدر الثاني بعد القرآن؟ وهل كثرة الأتباع دليل على قيمة المذهب ؟ وقد رد أبو زهرة عن ابن خلدون وعلى الأخص فيما يتعلق بشبهة قلة الاجتهاد، قال في مؤلفه عن أحمد بن حنبل إن ذلك لا يصح تعليلا لهذه العلة لأن الأصل غير صحيح فليس مذهب الإمام أحمد قليل الاجتهاد وقد علمنا أنه المذهب الذي فتح باب الاستنباط على مصرعيه في غير النص... ومصادر المذهب الكتاب والسنة وفتوى الصحابة والإجماع والقياس والاستصحاب والمصالح... بل إن مذهب الإمام أحمد في حرية التعاقد هو أقرب المذاهب إلى القوانين الحديثة...[11] .

ثم بعد ذلك تناول علم أصول الفقه وأثناء حديثه عن مبادئه تناول المصادر المتفق عليها بين العلماء، إن الكتاب والسنة مصدرين أساسيين وكان اجتهاد العلماء في طرق الاستدلال والاستنباط من هذين المصدرين، وقد أدى اجتهاد الفقهاء في إطارهما إلى إبراز مصادر أخرى ثانوية، وقد ألحق بهذين المصدرين الإجماع والقياس، واعتبرا أقرب المصادر إليهما، وابن خلدون يقف عند حدود هذه المصادر الأربعة فيقرر في مقدمته: أن ما عداها من طرق الأدلة الأخرى التي عني بها الأصوليون قليل الأهمية، لا حاجة به حتى إلى الإشارة إليها فيقول في مقدمته "واتفق جمهور العلماء على أن هذه هي أصول الأدلة" يعني الكتاب والسنة والإجماع والقياس وإن خالف بعضهم في الإجماع والقياس، إلا أنه شذوذ وألحق بعضهم بهذه الأربعة أدلة أخرى لا حاجة بنا إلى ذكرها، لضعف مداركها وشذوذ القول فيها"[12].

أما بقية طرق الأدلة التي لم يعبأ بها ابن خلدون فمنها : الاستصحاب، والاستحسان والمصالح المرسلة وإجماع أهل المدينة وقول الصحابي والعرف .

والرد على ابن خلدون له أهميته لأننا نرى مثل طرق الأدلة هذه كان نتاج فكر وعلم من لدن فقهائنا الذين اعتبروا هذه الأدلة وقدروها حق قدرها ولم يشذ من الفقهاء إلا الظاهرية، صحيح أن فقهائنا لم يجمعوا عليها، لأنهم لم يجمعوا إلا على المصدرين لكنهم استوعبوها جميعا[13].

**الخاتمة** :

عاش ابن خلدون في نهاية القرن الثامن هجري والرابع عشر ميلاد، والتي كان فيها احتضار للحضارة الإسلامية، والتي بقيت فيها جذوة العلم مشعة، من خلال مراكز العلم ودور العبادة التي كان يجتمع فيها طلبة العلم ويتلقون منها المعارف الصحيحة، ومنها تخرج ابن خلدون الذي تشبع بالعلوم الشرعية من قرآن وسنة وفقه ولغة لأنها كانت من أولويات العالم والمتعلم، كما أن التاريخ العربي لم يعرف رجلا ملئت حياته بالحوادث التي صنعت منه شخصية لامعة كابن خلدون، حتى لا يمكننا القول أن أبرز صفاته التقلب والثقة بالنفس وحب العمل والمغامرات السياسية وقد استأثرت الوظائف الحكومية والمغامرات السياسية بأكبر قسط من وقته ونشاطه، كما تعود شهرة ابن خلدون في إنتاجه الفكري إلى مقدمته التي تصدى بها لدراسة مواضيع لم تكن معروفة قبله إلا سطحيا، كما يشير في مقدمته إلى حقيقة مهمة وهي أن معظم حملة العلم العقلي والشرعي كانوا من العجم سواء في نحو أو حديث أو أصول الفقه أو التفسير والذي ينبغي أن نشير إليه في الختام أن ابن خلدون قام بتصنيف العلوم الشرعية في كتابه المقدمة ولم يضف جديدا لأن عصره كان عصر تقليد وعصر شروح للمتون ولم يكن عصر اجتهاد ومناظرات فقهية تساهم في تنمية الملكة الفقهية ومع ذلك فإن ابن خلدون قدم العلوم الشرعية بأسلوب واضح وبمعرفة صحيحة لهذه العلوم التي تناولها في مقدمته.

## الهوامش والمراجع:


1 التعريف بين خلدون دار الكاتب اللبناني، دار الكاتب المصري 1979، ص 21 .

2 نفس المرجع، ص 21 – 22.

3 نفس المرجع، ص 21 – 23.

4 نفس المرجع، ص 22.

5 نفس المرجع، ص 22.

6 الجامع في تاريخ العلوم عند العرب، عبد الرحمان مرحبا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائـر، 1988، ص 483.

7 الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون، المؤسسة الوطنية للكتـاب، ديـوان المطبوعـات الجامعيـة، 1988، ص 12.

8 أنظر التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، عبد الرحمن ابن خلدون، دار الكتـاب اللبنـاني دار الكتاب المصري، ص 273 وما بعدها.

9 الجامع في تاريخ العلوم عند العرب، ص 489.

10 الجامع في تاريخ العلوم عند العرب، ص 491.

11 مجلة كلية الشريعة واللغة العربية بالقسيم، الفكر الحضاري لدى فقهاء المسلمين محمـد عبـد السمان، العدد الأول 1299 – 1400، ص 544.

12 مقدمة العلامة ابن خلدون، الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الجـزء الثاني، ص 551، ص 552.

13 مقدمة ابن خلدون، ص 552، مجلة كلية الشريعة، العدد الأول، ص 148.